جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الشريعة الإسلامية

جُهود العلماء في الدفاع عن القرآن
منذ بداية القرن الثالث حتى نهاية القرن الخامس للهجرة

رسالة مقدَّمة لنيل درجة الدكتوراه

إشراف: الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم شريف
إعداد الطالب: سامر عبد الرحمن رشواني

1427هـ – 2007م

□ﮓ ﮒ ﮑ ﮐ ﮏ ﮎ ﮍ□

[الحِجْر:9]

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان الرسالة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

لم يزل القرآن الكريم مُذْ جاهر به رسول الله ﷺ بمكة أول مرة، وتلاه على الملأ من مشركي قريش، هدفاً لمطاعن الكفار والمشركين، ومن بعدهم اليهودُ والنصارى. إذ لم تَخْفَ عنهم المفارقة التي يمثلها هذا الكلام الإلهي عما عهدوه وعرفوه من كلام العرب ـ خطباءَ وكُهَّاناً وشعراءَ ـ حتى قبل أن يتحداهم القرآن ببيانه ويستفزَّهم إلى معارضته. فهجموا على كتاب الله بكل تهمة، وحاولوا كسر شوكته والتشويش عليه بكل مطعن.. فقالوا: ﴿ڤ ڤ ڤ ڤ ﴾ ، وقالوا: ﴿ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ﴾ , وقالوا: ﴿ٻ ٻ ٻ ٻ﴾ .. وغيرَ ذلك من افتراءاتهم الدّالة على مقدار الاضطراب والتحيُّر اللذينِ سبَّبهما لهم القرآن.

وقد ساق الباري عز وجل هذه المطاعن جميعها في كتابه العزيز، وأجاب عنها صراحةً وضِمْناً، فأرشد بذلك المسلمين إلى الحجج الجوهرية في الدفاع عن القرآن. ولعلنا لا نعدو الصواب إن قلنا: إن أصول جميع المطاعن التي عرفت في القرون الأولى من تاريخ الإسلام، قد وجدت كلها فيما قاله المشركون وغيرهم في عهد رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فإن أعداء الإسلام لم يتوقفوا عن محاولة إطفاء نور القرآن، فظهرت حركة المرتدين عقب وفاة رسول الله ﷺ تحاول أن تحاكيَ القرآن وتعارضه، فأتت بسخافات كانت محطَّ سخرية العرب وتهكمهم. ثم انكفأت بعدها حركة الطعن في القرآن رَدْحاً قصيراً من الزمن. حتى إذا توسعت دولة الإسلام، وطوت بين جناحيها شعوباً من أديانٍ شتى ونِحَلٍ لا حصر لها، وانطلقت مجالس الجدل والمناظرة بين المسلمين وأرباب النحل الأخرى؛ استعادت حركة الطعن في القرآن نشاطها، وعادت متسلحةً بأدوات جديدة، استقتها من أديان المشرق وعلوم اليونان، فكان لزاماً على علماء المسلمين أن ينهضوا لمقارعة هذه الحركات الراميةِ هدمَ أُسِّ الإسلام وعموده.

في مبتدأ حركة الجدل هذه ـ في منتصف القرن الثاني للهجرة ـ لم يكن النقاش حول القرآن إلا غرضاً من الأغراض الجدلية للمتحاورين من المسلمين وغيرهم، ولم يستقلَّ بنفسه فَنًّا (أو عِلْماً)، نوعَ استقلالٍ، إلا في القرن الثالث والرابع، ثم عاد ليَخْبوَ ويَفْتُرَ مع بلوغ نهاية القرن الخامس للهجرة، حين خمدت حركة الجدل التي كانت موَّارة في معظم أنحاء العالم الإسلامي، فانطفأت بذلك أسباب الدفاع عن القرآن. ولكن مادة هذا الفن (الدفاع عن القرآن) لم تذهب هَباءً، بل أخذت تتسرب في ثنايا المصنفات القرآنية على اتساع فنونها: تفسيراً، وبلاغةً، وإعجازاً؛ فشكَّلت بذلك كثيرا من ملامح العلوم القرآنية.

ولكن تطاول الدهور أنسى الأصول التي قامت عليها العلوم القرآنية، والأغراض التي نهضت لأجلها، حتى إن حاجي خليفة(ت 1067) ـ صاحب كشف الظنون ـ لم يجد مصنفات يضعها تحت العنوان الذي خصصه لما سماه «علم دفع مطاعن القرآن»، بل إنه لم يكشف لنا عن تعريفه هذا العلم، وإن كان أوَّلَ من أفرد علماً بهذا الاسم، لم يسبقه إليه أحد. ثم جاء من بعده

صديق بن حسن خان القَنُّوجي (1307هـ) فوضع ـ في كتابه أبجد العلوم ـ حدا دقيقا لهذا العلم ، فعرفه بأنه : ''**علمٌ باحثٌ عن دفع شبهات أرباب الضلال المورَدَة على القرآن الكريم، بحسب لفظه، أو بحسب معناه**''. ثم قال: "**ومباديه: العلوم العربية، وعلم الأصلين**". ولكن شأنه شأن حاجي خليفة إذ لم يقفنا على مصنفات تندرج تحت هذا العلم .

من هنا جاءت هذه الدراسة للنظر في تاريخ هذا العلم الدفين «علمِ دفع مطاعن القرآن»، بحثا في نشأة الكتابات الدفاعية عن القرآن، واستكشافاً لتطورها التاريخي، وتحليلاً لأغراضها الموضوعية، ولأصولها الحِجَاجية، وذلك ضمن إطار زماني مبتدؤه القرن الثالث للهجرة، وطَرَفُه الآخر نهاية القرن الخامس.

ولا تكاد أهمية هذا الغرض العلمي ، «الدفاع عن القرآن» ، تَخفَى على الناظرين في هذا الزمان ، العصيبةِ أيامُه ، المتكأكئةِ صروفُه على المسلمين : واقعِهم وتاريخهم، حضارتِهم وعلومهم ، قرآنِهم وسنَّتِهم. لاسيما إذا علمنا أن البحث في تاريخ الجدل الكلامي بين الفرق الإسلامية وبين المسلمين وغيرهم ، وفي أثر هذا الجدل على تشكل العلوم الكلامية والمباحث الفلسفية ، قد استحوذ على اهتمام الباحثين وعنايتهم منذ عقود عديدة ، حتى لا نكاد نجد في جانب التأريخ للجدل حول القرآن، وأثره في تشكُّل العلوم القرآنية، دراساتٍ مفردةً تُذكر.

وبالنظر في الأغراض التي تناولتها الكتابات الدفاعية عن القرآن، تبيَّن أنها تدور على بابين أساسين، فيهما تندرج كل المطاعن التي أثيرت على القرآن، وعليها ردَّ علماءُ المسلمين: **الدفاع عن صحة نقل القرآن، والدفاع عن نَظْم القرآن مبنىً ومعنىً**. وجرياً على هذا النسق ذاته جاءت هذه الدراسة على بابين أساسين، وبابٍ تأريخي هو بمثابة التمهيد والتقديم لها.

أما **الباب الأول**: وهو الباب التأريخي، فقد عرض لطرف من تاريخ الجدل حول القرآن. وهو منقسمٌ إلى فصلين : **فصل** خاص بتاريخ الطعن على القرآن، وغايته التعرف إلى ما وصلنا من كتب الطاعنين على القرآن أو نصوصهم، وما أوردوه من مطاعن على القرآن، وتتبع تطور هذه المطاعن والخلفيات العَقَدية والفكرية التي كانت تقوم عليها. وفي معرفة هذا ما يعين على تقويم مادة الدفاعات والحِجَاجات الإسلامية، من حيث معرفةُ وجوه المطاعن، ونزاهةُ التعبير عنها واستيعابُها، وإدراكُ السياق الذي صدرت عنه، ثم .. من حيث نجاحُها في تفنيد هذه المطاعن. وقد اضطرنا هذا الغرض إلى التطرق لِطَرَفٍ من تاريخ الطعن في القرآن في القرن الثاني لِمَا وجدناه من أن مادَّة كثيرٍ من المطاعن التي يردُّ عليها المدافعون في القرن الثالث هي من مأثورات القرن الثاني.

أما **الفصل الثاني**: فغايته التعريف بالكتابات الدفاعية: نشأتها وتطورها، ما كان منها مفرداً للدفاع عن القرآن، وما كان منها دفاعه عن القرآن غرضاً ثانويًّا. والتعرف إلى بِنْيتها والأغراض التي تناولتها، فضلاً عن الخَلْفيات المذهبية والعَقَدية لمؤلفيها، وتحقيق مكانة كلٍّ منهم في تاريخ الدفاع عن القرآن وأثره. هذا.. فضلاً عن محاولة استخلاص نصوص كتبٍ مفقودة، والتعرف إلى مؤلفين مجهولين، وتصحيح أخطاء تاريخية في نسبة كتب أخرى.

أما **الباب الثاني**: فمداره على الغرض الأول من أغراض الدفاع عن القرآن، وهو الدفاع عن نقل القرآن، وإثبات صحته وتواتره ـ غيرَ محرَّف ولا مُبدَّل ـ . وهو مؤلف من ثلاثة فصول:

تكفَّل **الأول** منها بنقض المطاعن التي أثيرت حول تاريخ القرآن حفظاً وتدويناً: من مثل القول بأنه لم يتأتَّ حفظُ القرآن ونقله نقلاً متواتراً، يعصمه من التحريف والتبديل، إذ في تاريخه من الاختلاف ما يدعو للشكِّ في حصول هذا التواتر، وترجيح حدوث التحريف فيه. وقد استغرقت هذه المطاعن الفترة التاريخية الممتدة من عهد رسول الله ﷺ إلى عصر الأمويين، أو ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي (95هـ) على وجه التحديد.

أما **الفصل الثاني**: ففيه دَفْعُ الاحتجاج بالأخبار والروايات التي حاول الطاعنون الاستشهاد بها على حدوث التحريف فعلاً، وعلى صدق مقولتهم الأولى. وذلك ببيان ضعفها أو وَهَائها، أو ببيان وجوه تأويلها وفهمها، أو بنقض وجوه الاحتجاج بها أصلاً.

أما **الفصل الثالث**: فكان دَفعاً للمطاعن على بعض علوم القرآن ذات الصلة بنقله، وهي مطاعن كان متعلَّقَها الأساسيَ اختلافُ المسلمين فيها.. أنه منبئٌ ـ برأي الطاعنين ـ عن افتقاد القرآن شرطَ التواتر الحافِظَ له من التحريف والتبديل. فتعلقوا بمثل الاختلاف في معنى الأحرف السبعة، ووجه قراءة القرآن باللفظ أو بالمعنى، والاختلاف في عدد آي السور والمكي والمدني والقراءات المتواترة ورسم المصحف.

ثم يأتي **الباب الثالث** المخصص لدرس الغرض الثاني من أغراض الدفاع عن القرآن وهو الدفاع عن نظم القرآن معنىً ومبنىً. وهو مبنيٌّ على فصلين:

الفصل الأول: في دفع المطاعن على معاني القرآن: من خمسة وجوه: الطعن في اشتمال القرآن على المتشابه، والطعن في آيات الصفات، ثم دعوى حصول التناقض والاختلاف بين آي القرآن، ومخالفته الحقائق التاريخية والطبيعية، ثم مخالفته مقتضى العقول.

الفصل الثاني: في دفع المطاعن على بيان القرآن، ويشمل الدفاع عن فصاحة القرآن الكريم وبيانه، بالرد على ما أُخذ عليه من الحذف والتَّكرار والتطويل والكناية والابتذال في الألفاظ، وغير ذلك مما يخالف دعوى الفصاحة والتفوق البياني.

كما يضم هذا الفصل الدفاع عن لغة القرآن.. بالرد على من ادَّعى حصولَ اللحن فيه، أو اشتمالَه على غير العربية. وأخيراً.. دفعَ حجج المنكرين صحةَ التحدي بالقرآن، المثبتين حصولَ معارضته، ووقوعَ الشعر فيه، أو المنكرين مفارقتَه البيانَ العربي.

وقد تَرسَّم البحثُ المزاوجةَ بين المنهجين التاريخي والتحليلي، وإن غلب عليه ـ في قضايا كثيرة ـ النظر إلى الكتابات الدفاعية على أنها مُدوَّنةٌ واحدة، وذلك حيث تكاد تتلاشى الفروق الجوهرية بين أعلام المدافعين عن القرآن، على اختلاف مذاهبهم وأصولهم العقدية وظروفهم التاريخية.

وتقوم البنية التحليلية لهذه الدراسة على عدد من العناصر والتساؤلات التي تفرضها طبيعة البحث:

ـ ببيان المطعن: وجهه وحججه.

ـ ثم بيان وجوه الدفاع المختلفة التي قدمها علماء المسلمين , والقواعد والأصول التي قامت عليها.

ـ ثم النظر في مدى توفيتهم بحق الدفاع عن القرآن، وقدرتهم على اقتلاع المطاعن، وتقويم برهانية حججهم .

ويبقى أن نشير إلى أنه لا يمكن لهذه الدراسة أن تدعيَ القدرة على رسم صورة دقيقة شاملة للدفاع عن القرآن في الفترة الزمنية التي اختصت بها، إذ إن كثيراً مما كتب في تلك القرون قد أدركه الضياع، أو لا يزال حبيس خزائن المخطوطات لم يخرج إلى النور بعد. كما لا يمكن أن تدعيَ الاستقصاءَ الشامل، أو الحصرَ الدقيق لكل ما وصلنا مما كتب دفاعاً عن القرآن في القرون التي اختصت بها.. فلا يَبْعُد أن يكون قد نَدَّ عنها شيءٌ مما كتب في هذا الغرض العلمي الجليل.

يضاف إلى ذلك أن تعرضها لطائفة واسعة من القضايا المتصلة بعلوم القرآن قد جعلت البحث في كثير من مسائله غير مستوفى ولا مستكفى .. بل من قضاياها ما يحتاج لدراسات مستقلة برأسها.

ولكن .. حَسْبي أني قد حَظيت بإشراف أستاذٍ جليلٍ، هو مِلءُ السمع والبصر: علماً ولُطفاً، فقوَّم عملي بثاقب نظره، وسدَّده بصارمِ منهجيته ذائعةِ الصِّيْت.. أستاذي **الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم شريف**، الذي شرفت بالتتلمذ على يديه سبع سنين سمان .. أدخر حصادهن لقابل أيامي.

فله مني منتهى الشكر وغاية العرفان ، إذ غمرني بوافر علمه وجميل رعايته، ولم يدخر وسعا في تذليل صعاب كثيرة علي ـ وعلى إخوتي من الطلبة الموفدين ـ المحكومين بضيق الوقت .. فكان نعم المعلم الفاضل والوالد الكريم.

والله أسأل أن يديم نفعه على طلاب العلم .. وأن يقرَّ عينه في الدنيا والآخرة.. ويجزيه عني بما هو أهله.

ثم كان من تمام فضل الله وكمال منته أن أكرمني بأستاذين فاضلين وعلمين جليلين تفضلا بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها على الرغم من كثرة مشاغلهما وثقل أعبائهما: الأستاذ الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، والأستاذ الدكتور يوسف عبد الرحمن الفرت أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم بالفيوم .. نفعني الله بعلمهما وملاحظاتها.. وجزاهما عني خير الجزاء.

وبعد ..

فإنه لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر إلى القائمين على هذا الصرح العلمي العتيد أساتذة وإداريين وعاملين..

والشكر موصول إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق وأساتذتها الكرام إذ أتاحوا لي فرصة الدرس في هذه الدار العامرة.

ثم إنه لا يسعني أيضا ـ وأنا على شفا مفارقة هذه البلدة الطيبِ أهلُها ـ إلا أن أعبر عن امتناني وعرفاني لقوم من أهل مصر الطيبين .. كانوا لي نعم الأهل والعون في ساعة الشدة.

كما يسرني أن أعبر عن خالص شكري لأصدقائي وزملائي ورفاقي .. سائلا المولى عز وجل أن يكلل مسيرتهم بالتوفيق والفلاح.

وفي الختام ..

فإنني أقدم هذه الدراسة هدية متواضعة بين يدي والديَّ وأهلي.. رجاء أن تقر بها عيونهم بما قدموا وصبروا ..

والحمد لله أولا وآخرا ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بطاقة تعريف الطالب

ـ سامر عبد الرحمن رشواني
ـ من مواليد مدينة حلب سنة 1976.
ـ تخرج في كلية الشريعة بجامعة دمشق سنة 1997.
ـ حصل على دبلوم الفقه الإسلامي وأصوله سنة 1998.
ـ عين معيدا في قسم التفسير وعلوم القرآن في سنة 1999 وأوفد إلى جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه.
ـ أنجز رسالته للماجستير "منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم شريف ، ونالها في سنة 2003.
ـ سجل رسالته للدكتوراه "جهود العلماء في الدفاع عن القرآن من القرن الثالث حتى القرن الخامس للهجرة" في 2004/1/21.

فهرس الموضوعات

مقدّمة
أ

الباب الأول: من تاريخ الجدل حول القرآن حتى القرن الخامس
1

تمهيد: في تاريخ الجدل في الإسلام
2

الفصل الأول: تاريخ الطعن في القرآن حتى القرن الخامس
7

المبحث الأول: بدايات الطعن في القرآن في القرن الثاني
8

أولا: يوحنا الدمشقي 8
ثانيا: ابن المقفع 11
ثالثا: طيموثاوس الأول 15
رابعا:ثاوذورس أبو قرة 16
المبحث الثاني: الطعن في القرآن في القرن الثالث 17
أولا: إبراهيم الطبراني 17
ثانيا: عمار البصري 19
ثالثا: ابن الراوندي 21
رابعا: قسطا بن لوقا 30
المبحث الثالث: الطعن في القرآن في القرن الرابع
31

أولا: أبو بكر الرازي 31
ثانيا: عبد المسيح الكندي 34
المبحث الرابع: الطعن في القرآن في القرن الخامس
38

ابن النغريلة 38

الفصل الثاني: تاريخ الدفاع عن القرآن حتى القرن الخامس
44

المبحث الأول: بدايات الدفاع عن القرآن في القرن الثاني 45
أولا: مقاتل بن سليمان 45
ثانيا: أبو الربيع محمد بن الليث 48
المبحث الثاني: الدفاع عن القرآن في القرن الثالث 50

أولا: أبو عبيد القاسم بن سلَّام 50
ثانيا: علي بن رَبَّن الطبري
53
ثالثا: القاسم الرَسيّ 56
رابعا: الجاحظ 60
خامسا: ابن قتيبة 63
المبحث الثالث: الدفاع عن القرآن في القرن الرابع 68
أولا: ابن أبي داود 68
ثانيا: أبو حاتم الرازي 70
ثالثا: ابن الأنباري 72
رابعا: أبو الحسن العامري
79
خامسا: الخطَّابي 80
سادسا: القاضي عبد الجبار
82
سابعا: الباقلاني 86
المبحث الرابع: الدفاع عن القرآن في القرن الخامس
98
أولا: مؤلف مقدمة المباني (حامد بن أحمد بن بَسطام)
98
ثانيا: ابن حزم 105
ثالثا:المؤيَّد في الدين 107

الباب الثاني: دفع المطاعن على نقل القرآن
109
تمهيد في دعوى تحريف القرآن 110
الفصل الأول: دفع المطاعن على تاريخ القرآن حفظاً وتدويناً
136
المبحث الأول: جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ
137
المطلب الأول: قصة الغرانيق 137
المطلب الثاني: نسيان النبي ﷺ القرآنَ 146
المطلب الثالث: قلة عدد من جمع القرآن من الصحابة
148
المبحث الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر
160
المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان
168

المطلب الأول: أسباب جمع عثمان المصاحف وكتبها 171
المطلب الثاني: دفع الاعتراض على اختيار زيد لجمع المصحف 173
المطلب الثالث: دفع الاعتراضات على الوجه الذي جمع عليه عثمان المصحف 179
المبحث الرابع: مصحف علي 201
المبحث الخامس: المصحف في عهد بني أمية (الحَجَّاج والمصحف العثماني) 207
الفصل الثاني: دفع الاحتجاج بروايات ظاهرها التحريف 215
المبحث الأول: دفع المطاعن المتعلقة بسور القرآن ترتيباً أو زيادةً ونقصاً 216
المطلب الأول: دفع المطاعن المتعلقة بترتيب سور القرآن 216
المطلب الثاني: دفع دعوى الزيادة في سور القرآن (المعوذتين) 230
المطلب الثالث: دفع دعوى نقص سور من القرآن (القنوت) 239
المبحث الثاني: دفع المطاعن المتعلقة بتحريف آيات من القرآن 245
المطلب الأول: أخبار آيات لم تُثْبَت في مصحف عثمان 245
المطلب الثاني: آيات فيها زوائد تخالف رسم المصاحف العثمانية 259
المطلب الثالث:أخبار تفيد ضياع شيء من القرآن أو إدخال شيء فيه 263
الفصل الثالث: دفع المطاعن على بعض علوم القرآن النقلية 267
المبحث الأول: الاختلاف في الأحرف السبعة 268
المبحث الثاني: دعوى قراءة القرآن بالمعنى 277
المبحث الثالث: الاختلاف في عدد آي السور والمكي والمدني وأول ما نزل وآخره 290
المبحث الرابع: دفع المطاعن عن القراءات المتواترة 295
الباب الثالث: دفع المطاعن على نَظْم القرآن الكريم 305
الفصل الأول: دفع المطاعن على معاني القرآن 306

المبحث الأول: الدفاع عن اشتمال القرآن على المتشابه 308
المبحث الثاني: دفع المطاعن عن آيات الصفات 325
المبحث الثالث: دفع الاختلاف عن آي القرآن 339
المبحث الرابع: الدفاع عن صحة أخبار القرآن 359
المبحث الخامس: دفع مخالفة القرآن للمعقول 381

الفصل الثاني: دفع المطاعن على بيان القرآن 400
المبحث الأول: دفع المطاعن على فصاحة القرآن 401
المطلب الأول: الحذف 401
المطلب الثاني: التكرار 410
المطلب الثالث: التطويل (التوكيد) 418
المطلب الرابع: الكناية 421
المطلب الخامس: فصاحة ألفاظ القرآن 423
المبحث الثاني: دفع المطاعن على لغة القرآن 426
المطلب الأول: دفع دعوى اللحن في القرآن 426
المطلب الثاني: غير العربية في القرآن 442
المبحث الثالث: مفارقة القرآن بيانَ العرب وامتناع معارضته 444
المطلب الأول: صحة التحدي بالقرآن 444
المطلب الثاني: هل عجز العرب عن معارضة القرآن 448
المطلب الثالث: مفارقة القرآن البيانَ العربي (نفي الشعر عن القرآن) 454

الـخاتمة 466

الفهارس 472
فهرس الآيات القرآنية 473
فهرس الأحاديث النبوية 477

فهرس الآثار والأخبار 479
فهرس الأعلام 485
المصادر والمراجع العربية 493
المصادر الأعجمية 505
فهرس الموضوعات 508

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

لم يزل القرآن الكريم منذ جاهر به رسول الله ﷺ بمكة أول مرة، وتلاه على الملأ من مشركي قريش، هدفاً لمطاعن الكفار والمشركين، ومن بعدهم اليهود والنصارى، وغرضاً يبتغون إبطاله ويتمنون استئصاله. إذ لم تَخْفَ عنهم المفارقة التي يمثلها هذا الكلام الإلهي عما عهدوه وعرفوه من كلام العرب ـ خطباءَ وكُهَّاناً وشعراءَ ـ حتى قبل أن يتحداهم القرآن ببيانه ويستفزَّهم إلى معارضته. فهجموا على كتاب الله بكل تهمة، وحاولوا كسر شوكته والتشويش عليه بكل مطعن.. فقالوا: ﴿ڤ ڤ ڤ ڤ﴾ [المدَّثر:24]، وقالوا: ﴿چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ﴾ [الفرقان:5]، وقالوا: ﴿ٻ ٻ ٻ﴾ [النحل:103].. وغير ذلك من افتراءاتهم الدّالة على مقدار الاضطراب والتحيُّر اللذينِ سبَّبهما لهم القرآن.

وقد ساق الباري عز وجل هذه المطاعن جميعها في كتابه العزيز، وأجاب عنها صراحةً وضِمْناً، فأرشد بذلك المسلمين إلى الحجج الجوهرية في الدفاع عن القرآن[1]. ولعلنا لا نعدو الصواب إن قلنا: إن أصول جميع المطاعن التي عرفت في القرون الأولى من تاريخ الإسلام، قد وجدت كلها فيما قاله المشركون وغيرهم في عهد رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فإن محاولات أعداء الإسلام لم تتوقف عن محاولة إطفاء نور القرآن، فظهرت حركة المرتدين عقب وفاة رسول الله ﷺ تحاول أن تحاكي القرآن وتعارضه، فأتت بسخافات كانت محطَّ سخرية العرب وتهكمهم. ثم انكفأت بعدها حركة الطعن في القرآن لفترة من الزمن. حتى إذا توسعت دولة الإسلام، وطوت بين جناحيها شعوباً من أديان شتى ونِحَلٍ لا حصر لها، وانطلقت مجالس الجدل والمناظرة بين المسلمين وأرباب النحل الأخرى؛ استعادت حركة الطعن في القرآن نشاطها، وعادت متسلحةً بأدوات جديدة، استقتها من أديان المشرق (كالمانوية) وعلوم اليونان، فكان لزاماً على علماء المسلمين أن ينهضوا لمقارعة هذه الحركات الراميةِ هدمَ أُسِّ الإسلام وعموده.

في مبتدأ حركة الجدل هذه ـ في منتصف القرن الثاني للهجرة ـ لم يكن النقاش حول القرآن إلا غرضاً من الأغراض الجدلية للمتحاورين من المسلمين وغيرهم، ولم يستقلَّ بنفسه فَنًّا (أو عِلْماً)، نوعَ استقلالٍ، إلا في القرن الثالث والرابع، ثم عاد ليَخْبوَ ويَفْتُرَ مع بلوغ نهاية القرن الخامس للهجرة، حين خمدت حركة الجدل التي كانت موَّارة في معظم أنحاء العالم الإسلامي، فانطفأت بذلك أسباب الدفاع عن القرآن. ولكن مادة هذا الفن (الدفاع عن القرآن) لم تذهب هَباءً، بل أخذت تتسرب في ثنايا المصنفات القرآنية على اتساع فنونها: تفسيراً، وبلاغةً، وإعجازاً؛ فشكَّلت بذلك كثيرا من ملامح العلوم القرآنية.

---

(1) قدَّم نجم الدين الطوفي محاولة فريدة في رصد الجدل القرآني مع المخالفين له والطاعنين فيه، محاولة لا يعيبها إلا افتقادُها النَّسقَ الموضوعيَّ الضَّامَّ مسائلَ الجدل. فقد استقرأ آيات الجدل وتتبعها في سور القرآن واحدةً تلو الأخرى، من غير ضمِّ الأشباه والنظائر بعضها إلى بعض. انظر: الطوفي، نجم الدين، عَلَم الجدَل في عِلْم الجدَل، نشرة: فولفهارت هانيريشس، فيسبادن: فرانز شتاينر، 1987، 93–208.

ولكن تطاول الدهور أنسى الأصول التي قامت عليها العلوم القرآنية، والأغراض التي نهضت لأجلها، ففي سنة 1062 هـ عندما أنهى حاجي خليفة (ت 1067) تصنيف «كشف الظنون» ـ أشهر ما كتب في التعريف بالكتب والعلوم ـ لم يكن قد وقف على مصنفات يضعها تحت العنوان الذي خصصه لـ «علم دفع مطاعن القرآن»[1]، بل إنه لم يكشف لنا عن تعريفه هذا العلم، وتصوره عنه، وإن كان أوَّلَ من أفرد علماً بهذا الاسم، لم يسبقه إليه أحد[2].

هذا العلم الذي لم يعرِّفه حاجي خليفة، جاء صديق بن حسن خان القَنُّوجي (1307هـ) فوضع له حدًّا دقيقاً، فقال: علم دفع مطاعن القرآن:"**علمٌ باحثٌ عن دفع شبهات أرباب الضلال المورَدَة على القرآن الكريم، بحسب لفظه، أو بحسب معناه**". ثم قال: "**ومباديه: العلوم العربية، وعلم الأصلين**"[3].

لقد لخَّص القَنُّوجي في هذا التعريف المحكَم جُلَّ الأغراض التي تناولتها الكتابات الدفاعية عن القرآن في القرون الخمسة الأولى، كما أنه أوضح ـ بتحديده «مبادي» هذا العلم ـ الأصولَ المنهجية التي شكَّلت بِنْيَته الحِجَاجية.

وعلى النظر في تاريخ هذا العلم الدفينِ، «علمِ دفع مطاعن القرآن»، تقوم هذه الدراسة. إذ تبحث في نشأة الكتابات الدفاعية عن القرآن، استكشافاً لتطورها التاريخي، وتحليلاً لأغراضها الموضوعية، ولأصولها الحِجَاجية، وذلك ضمن إطار زماني مبتدؤه القرن الثالث للهجرة، وطَرَفُه الآخر نهاية القرن الخامس.

وتخصيص هذه الحقبة التاريخية بالدرس يستند إلى اعتبارين:

ـ **اعتبار معرفي**: مؤلَّفٍ من شقين:

أولهما: أن القرنين الأولين من تاريخ الإسلام قد غلب عليهما الجدل الشفاهي، ولم يشهدا حركة تصنيف واسعة في هذا المجال ، إذ ما نعرفه عن مصنفات القرن الثاني في جدال المخالفين ونقض مطاعنهم نَزْرٌ يسير، وما وصلنا منها أعزُّ وأندَر.

ثانيهما: أن كتابات علماء المسلمين في القرن الثالث قد اختزنت خبرة القرنين الفائتين في الجدل الشفاهي مع المخالفين، على ما كانت عليه هذه الخبرة من فِطْرية وسذاجة،كما نبَّه إلى هذا بعضُهم (كالجاحظ وابن رَبَّن الطبري). ولعل ذلك مما يحدونا إلى إخراجها عن حيِّز هذه الدراسة لضعف أثرها في نشأة هذا العلم. وهذا لا يعني إهمال هذه الفترة وعدم احتياج مثل هذا البحث إليها، بل يقتضي إفرادها بالدرس والنظر، تأمُّلاً في بدايات هذا الفنِّ بصورته الأوَّلية.

أما عن سبب التوقف عند نهاية القرن الخامس، فمَردُّه انطفاءُ جَذوة حركة الجدل عموماً، والجدل حول القرآن خصوصاً فيما بعدها من عصور، فضلا عن أن أسس الدفاع عن القرآن ومباديه قد استقرت خلال هذه القرون الثلاثة، وما جاء بعدها لم يَعْدُ ـ في الجملة ـ أن كان تَكراراً أو تفصيلاً لما قيل من قبل[4].

---

(1) ذكر هذا العنوان مرتين: مرة في المقدمة وأخرى في متن الكتاب، انظر: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 16/1؛ 757/1.

(2) ربما وقف حاجي خليفة على ما يصح أن يعتبر في هذا العلم ثم فاته أن يدرجه فيه، وإن كنت أرجح التفسير الأول، لأنه ذكر في كتابه بعض المصنفات التي تعد من الكتابات التي دفعت المطاعن عن القرآن، كالانتصار للباقلاني. انظر: كشف الظنون، 173/1؛ 1695/2.

(3) القَنُّوجي، صديق بن حسن خان، أبجد العلوم، بيروت: دار الكتب العلمية، 1978.، 288/2. ولكن القنوجي لم يذكر أيضا أيًّا من المصنفات التي يمكن أن تدرج تحت هذا العلم الذي عرَّفه، بما يصدِّق الاستنتاج الذي انتهينا إليه.

(4) على أنني قد تعمدت الخروج عن هذا القيد الزماني في مواطن يسيرة لأحد غرضين: التنبيه إلى تقصير علماء هذه الحقبة التاريخية في دفع بعض المطاعن مقارنة بمن لحقهم في عصور تالية، والغرض الآخر: الإشارة إلى نقد بعض المتأخرين بعض الدِّفاعات التى قدمها المتقدمون

ـ **اعتبار إجرائي**: يستند إلى أن طبيعة البحث في المرحلة الشفاهية في القرنين الأوّلين مختلفة إلى حد كبير عن البحث في الكتابات الدفاعية فيما بعد، فمصادرها كتب التاريخ والسِّيَر والأخبار والسنن، ومنهجها نقد الأخبار سنداً ومتناً، والإحاطة بالتطورات التاريخية المختلفة في هذه الحقبة. أما البحث في الكتابات الدفاعية؛ فهو عمل تحليلي بالدرجة الأولى، غايته معرفة ما قدمه المسلمون في الجدل ضد الطاعنين على القرآن وما تركته كتاباتهم الدفاعية من أثرٍ في العلوم القرآنية.

وعلى أية حال.. فإن الحدود الزمنية تبقى مَـرِنةً، ولا تشكل إلا إطاراً عامًّا يمكن أن يتسع بدايةً أو نهايةً، ولكن الطبيعة الإجرائية تقتضي التحديد والضبط مراعاة لمقتضيات الزمن ولضرورة التعمق المنهجي: ألَّا يطغى أحدُهما على الآخر.

وأما مفهوم «الدفاع» الذي تقوم عليه هذه الدراسة فإنما يقصد به تلك الكتابات التي قصد بها مؤلفوها ـ قصداً مباشراً أو عَرَضيًّا ـ الردَّ على مطاعن المخالفين على القرآن. وقد لزم هذا التنبيه حتى لا يتداعى إلى الذهن المفهومُ العامُّ الذي يستعمل أحياناً في تاريخ العلوم الإسلامية، وهو قيامُ جملةِ العلوم الإسلامية، بفروعها اللغوية والفقهية والأدبية، خدمةً للقرآن ودفاعاً عنه. فهذا، وإن صح انصبابُه فى وعاء الدَّرْس القرآنى بوجهٍ عام ، إلا أن غَرَض الدفاع عن القرآن , فى سياق المجادلات والنِّقاشات بين أهل المِلل والنِّحَل , لم يكن مقصود هذه العلوم بالأساس .. بقدر ما كان النتيجةَ المتحصِّلةَ عنها.

ولا تكاد أهمية هذا الغرض العلمي ، «الدفاع عن القرآن»، تَخفَى على الناظرين في هذا الزمان ، العصيبةِ أيامُه ، المتكأكئةِ صروفُه على المسلمين : واقعِهم وتاريخهم، حضارتِهم وعلومهم ، قرآنِهم وسنَّتِهم. لاسيما إذا علمنا أن البحث في تاريخ الجدل الكلامي بين الفرق الإسلامية وبين المسلمين وغيرهم ، وفي أثر هذا الجدل على تشكل العلوم الكلامية والمباحث الفلسفية ، قد استحوذ على اهتمام الباحثين وعنايتهم منذ عقود عديدة [1] ، وأننا لا نكاد نجد في جانب التأريخ للجدل حول القرآن [2] ، وأثره في تشكُّل العلوم القرآنية، دراساتٍ مفردةً تُذكر[3].

لذلك.. تُمثِّل هذه الدراسة محاولةً أولى ـ فيما أعلم ـ لتأريخ هذا الفن القرآني الجدلي: كشفاً عن نشأته وتطوره[4]، وتعريفاً بأعلامه ومصنفاتهم فيه، وتحليلاً لمبادئه وأصوله النظرية .. بما

عن القرآن: أنها غير وافية باقتلاع المطاعن.

(1) على أن الجدل حول القرآن وإن كان أحد الأغراض الجِدالية التي يتعرض لها الدارسون عند بحثهم أغراض الجدل بين المسلمين وغيرهم، إلا أنهم ـ في الجملة ـ لا يولونه العناية الكافية بحكم غلبة الاهتمام الكلامي عليهم، انظر مثلاً: الشرفي, عبد المجيد, الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر, تونس: الدار التونسية للنشر, 1986، 405–426؛ الصياد، ريمة شريف، حوار حول العقيدة بين المسلمين وأهل الكتاب حتى نهاية القرن الثالث الهجري في بلاد الشام والعراق، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم، 2003، 380–400.

(2) وإن كنا قد وجدنا للمستشرقين اهتماماً واسعاً بدراسة تراث الملحدين والزنادقة، ومطاعنهم على القرآن خصوصاً؛ فضلا عن عنايتهم برصد الكتابات الجدلية بين المسلمين وغيرهم، وهو غرض أخلَّ به المسلمون، انظر مثلا كتاب موريتس شتينشنيدر: أدب الجدل والدفاع في العربية بين المسلمين والمسيحيين واليهود، ترجمة: صلاح عبد العزيز محجوب إدريس، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط.1، 2005.

(3) ذلك أن المشتغلين بالقرآن وعلومه في زماننا هذا قد صرفوا جهودهم إلى الرد على المستشرقين وأتباعهم وأشباههم، وغالباً ما كانت صلتهم بتراث الدفاع عن القرآن، سواء من حيث أغراضه أو من حيث أصوله وقواعده، ضعيفةً. ولعل مرجع ذلك يرتد إلى تناثر مادته، وتفرق نصوصه، وافتقاره إلى تصنيف يَلُمُّ أطرافه ويرصد أعلامه ومصنفاته.

(4) الأمر الذي سيعرفنا أيضا بأثره على سيرورة العلوم القرآنية، ولكن هذا الهدف سيبقى خارج حدود هذه الدراسة، إذ سيستلزم الوفاء به الخروجَ عن الحدود الزمانية التي وضعت لها.